النشيد "تعظّم نفسي الربّ" (لو 1: 46-55) وسفر المزامير

دانيال عيوش

جامعة البلمند

١. مقدّمة

لقد أثّر نشيد مريم الوارد في لو ١: ٤٦-٥٥ في الليتورجيا المسيحية بمختلف عائلاتها وتقاليدها، إذ ينتمي هذا النشيد إلى خدمةِ السحر اليوميّة في الطقس البيزنطيّ، ويُتلى في صلاة الغروب بشكلٍ يوميّ في الكنيسة اللاتينيّة. ينسجمُ هذا النشيد مع الأناشيد الثلاثة الأخرى لإنجيل الطفولة بحسب لوقا البشير وهي: "أبارك الله" (لو ١: ٦٧-٧٩)، "المجد لله في العلى" (لو٢: ١٣-١٤)، و"الآن تطلق عبدك" (لو٢: ٢٨-٣٨). وتشهد تلاوة هذه الأناشيد في الخدم اليوميّة لليتورجيّا البيزنطيّة على قوة تأثير العمل اللوقاويّ في تكوين العبادة المسيحيّة.

يؤكّد النقادُ، من جهة، أنّ تعظيمة مريم مستوحاة من نشيد حنة النبية الوارد في ١ صم ٢: ١-١٠ (Brown, 358-60). ولكن، من جهةٍ أخرى، قلّما تمّ البحث في علاقة هذا النشيد بسفر المزامير، كتابِ صلواتِ الكنيسة بامتياز، والكتابِ الأكثر استشهاداً في هذا المقطع اللوقاويّ. هذا ما سندرسه في هذه المقالة، ليس على مستوى الاستشهادات فحسب، بل أوّلاً بالنسبة إلى بنيته الأدبيّة وطرحه اللاهوتيّ. في هذا العمل سأبرهن على أن التعظيمة متصلةٌ كلَّ الاتصال بالنوع الأدبيّ واللاهوت والمصطلحات الخاصة بسفر المزامير، وأنّ لهذا النشيد في إنجيل لوقا الدورَ نفسه الذي يتمّمه سفرُ المزامير في كلِّ قانون العهد القديم، وهو أنْ يعبّر على المستوى الوجدانيّ عن تفسيرِ المؤمن للتدخل الإلهيّ في التاريخ. يتمُّ هذا التعبير على شكل صلاةٍ تظهرُ كجوابِ الإنسان على أعمال العناية الإلهيّة.

٢. النوع الأدبيّ وبنية النشيد

بحسب فيتسماير (Fitzmeyer, 136)، لم يعثر مختصو النقد التاريخيّ التعاقبيّ على أيِّ تقليدٍ عبريٍّ أو آراميٍّ حافظَ على هذا النشيد. ولكن من البديهيّ أنّ لهذا النشيد صبغةً ساميةً قويّةً جداً كما نستنتجُ،

على سبيل المثال، من الاستعمالِ المتكرر لواو العطف في اليونانيّة (Schökel I, 22). إنّ الانتماء اللغويّ المتين لهذا النصّ إلى يونانيّة السبعينيّة والاستشهاد المتكرر من آيات سفر المزامير يدفعان الباحثَ إلى النظر لهذا النشيد كمزمورٍ آخر من العهد القديم اليونانيّ. وهذا برأيي قصدُ لوقا من تقديمه في الإنجيل.

نستنتجُ، في قراءةٍ أولى متمعِّنة، أننا أمام تسبيحٍ لعمل الله الخلاصيّ، وهذا هو الموضوع الرئيسيّ في المزامير التي تنتمي إلى النوع الأدبيّ "تسبيح". يقول الأخصائيّ في سفر المزامير ألونسو شوكِل: "إن التسبيح هو نشيدٌ لتمجيد الله، عادةً بسبب أعماله. تكون اللهجةُ احتفاليةً، ويُقال من قبل جوقة. يمكننا أن نقسّم التسبيحَ إلى مقدّمةٍ، ومتنِ النشيد وخاتمة. والصيغةُ العامة والمختصرة له هي «سبّحوا الربَّ لأنّه صالحٌ» (Schökel, 92). يُطبَّق هذا التحديد تمامًّا على التعظيمة بكلِّ أبعاده، وحتّى البعدُ الجوقيّ واردٌ فيه بشكلين: أوّلاً لأن مريم تمثّل كلَّ شعب الله، وثانياً لأن الشعبَ مذكورٌ في العبارتين "الودعاء" و"الجياع" في القسم الثاني منه (٥٢-٥٣).

يدعو المرنم في المقدّمة إلى حمد الربّ. الأفعال الأكثر استعمالاً في التسابيح العبريّة في سفر المزامير للدلالة على الحمد والتسبيح هي: //ه ل ل//، //ش ي ر//، //ه و د ه//، //ر ن ن//. بحسب البرنامج الكتابيّ Bibleworks7 تترجم السبعينيّة الفعل العبريّ //ر ن ن// بـــالفعل اليونانيّ agalliáô ٢٤ مرّة في كل العهد القديم، و٢٢ منها في سفر المزامير. ويفتتحُ هذا المصطلحُ المزمورَ ٣٣ الذي يُقارن عادةً مع تعظيمة مريم. وهذا يدلّ على امكانية انتماء التعظيمة إلى النوع الأدبيّ "تسبيح".

أمّا بالنسبة إلى متن النشيد، ففيه يذكر المرنّمُ أسبابَ التسبيح ويقدّمُ التأمل اللاهوتيّ الأساسيّ للنشيد. إنّه يبدأ دائمًا بأداة الوصل "لأنّ" (في العبريّة //ك ي// وفي السبعينيّة *hoti*)، التي نجدها في تعظيمة مريم في الآيات ٤٨-٤٩. يؤكّد بوفون (Bovon, 90) وكاريس (Karris, 142) أنّ متن نشيد مريم ينقسم إلى قسمين: في الأوّل تتذكر مريم أعمال الله في حياتها الشخصيّة (آ ٤٨-٥٠)، بينما في القسم الثاني تُعيد العذراء قراءةَ تاريخِ الخلاص، أي تمجد ما صنعه الله بشعبه منذ القدم (آ ٥١-٥٣). هذا ما نجده في الجمل السببيّة الواردة في مزامير التسبيح حيث "يحمدُ المرنمُ فيها أعمالَ الله في الطبيعة وفي التاريخ...

ويُشار إلى حضور الله وأعماله بواسطة الألقاب والصفات وبواسطة اسماء الفاعل التي تدل إمّا على فعل تمَّ مرةً واحدةً أو على فعل يستمر مفعوله إلى الآن" (Schõkel, 93).

أمّا من جهة الألقاب، نجد في نشيد السيدة أربعةَ ألقابٍ وهي: "المخلص" و"القدير" و"اسمه قدوس" و"رحمته إلى جيل الأجيال." وأما من جهة الأفعال، فالنشيدُ لا يشير إلى العمل الإلهيّ بواسطة أسماء الفاعل، بل باستخدام عشرة أفعالٍ في الصيغة الإخباريّة بالزمن الماضي البسيط (Aorist) وتكون مريم العذراء المفعولَ به لفعلين منها (آ ٤٨-٤٩)، بينما يكون شعبُ الله المفعول به للثمانية الأخرى (آ ٥١-٥٤). هنا يجدر الذكر أن استخدام الأفعال في الزمن الماضي في التسابيح يردُ أيضاً في المزامير ٣٣؛ ٤٧؛ ٦٥: ١١-١٢؛ ١٠٠: ٣.

في ما يخصّ الخاتمة، ففيها تعودُ التسابيح إلى الفكرة المطروحة في البداية. ويقدّمُ، بهذا الخصوص، نشيدُ مريم خاتمةً شاملةً تلخِّصُ عملَ الله في الآيتين ٥٤-٥٥: "عضد إسرائيل فتاه ليذكر رحمةً، كما كلَّم آباءنا. لإبراهيم ونسله إلى الأبد." العباراتُ التي تذكّر القارئَ بالقسم الأوّل من النشيد هي بلا شك المصطلحُ "رحمة" الوارد في الآيتين ٥٠ و٥٤، والعبارة "عضد إسرائيل فتاه" التي تفسّر لقبَ "مخلِّص" المذكور في الآية ٤٧. تشدِّدُ هاتان العبارتان على وفاء الله بعهده مع شعبه.

تلخيصًا لهذه الفقرات عن بنية التعظيمة ونوعها الأدبيّ يمكننا القول بأنّ النشيد يتكونُ من مقدّمةٍ (آ ٤٦ب)، ومتن أساسيّ ينقسمُ بدوره إلى قسم التسبيح بأعمال الله لأجل مريم (آ ٤٧-٥٠) وقسم التسبيح بأعمال الله من أجل كلّ الشعب (آ ٥١-٥٣). في الأخير تأتي الخاتمة التي تلخّص معنى الأحداث الخلاصيّة (آ ٥٤-٥٥). بناءً على هذا التحليل يمكننا أن نقسّم النصّ بحسب عناصر المزامير التسبيحيّة وقد وضعنا في الخط العريض الفعلَين الأساسيّين في المقدّمة ورسمنا سطرًا تحت الأفعال الإلهيّة العشرة:

[46]فَقَالَتْ مَرْيَمُ:

إعلان التسبيح

تُعَظِّمُ نَفْسِي الرَّبَّ، [47]**وَتَبْتَهِجُ** رُوحِي بِاللهِ مُخَلِّصِي،

أسباب التسبيح (الفردية)	
[48]لأَنَّهُ نَظَرَ إِلَى اتِّضَاعِ أَمَتِهِ.	فَهُوَذَا مُنْذُ الآنَ جَمِيعُ الأَجْيَالِ تُطَوِّبُنِي،
[49]لأَنَّ الْقَدِيرَ صَنَعَ بِي عَظَائِمَ،	وَاسْمُهُ قُدُّوسٌ،
[50]وَرَحْمَتُهُ إِلَى جِيلِ الأَجْيَالِ	لِلَّذِينَ يَتَّقُونَهُ.
أسباب التسبيح (الجماعية)	
[51]صَنَعَ قُوَّةً بِذِرَاعِهِ.	شَتَّتَ الْمُسْتَكْبِرِينَ بِفِكْرِ قُلُوبِهِمْ.
[52]أَنْزَلَ الأَعِزَّاءَ عَنِ الْكَرَاسِيِّ	وَرَفَعَ الْمُتَّضِعِينَ.
[53]أَشْبَعَ الْجِيَاعَ خَيْرَاتٍ	وَصَرَفَ الأَغْنِيَاءَ فَارِغِينَ.
الخاتمة	
[54]عَضَدَ إِسْرَائِيلَ فَتَاهُ لِيَذْكُرَ رَحْمَةً،	[55]كَمَا كَلَّمَ آبَاءَنَا، لإِبْرَاهِيمَ وَنَسْلِهِ إِلَى الأَبَدِ.

٣. التناصّ (Intertextuality) بين النشيد والمزامير:

يتلمَّس القارئ، في كلٍّ من الأبيات الثمانية التي تكوِّن هذا النشيد، استشهاداً أو إشارةً مباشرة إلى نصٍّ من سفر المزامير. ولكن لا يكفي أن نضع جدولاً إزائيًّا لنصوص لوقا والمزامير،[1] لأن العلاقة بينها لا تتحقق في حرفيّة العبارات، بل على مستوياتٍ مختلفة من النحو والدلالة وتتبلور ليس فقط في المصطلحات المستخدمة بل أيضًا في صياغة العبارات والجُمل وفي مدلولاتها اللاهوتيّة. يمكننا القولُ أن التناصّ قائمٌ في الأبعاد التالية: في استخدام المصطلحين "عظَّم" و"ابتهج" (آ ٤٦-٤٧)، في الألقاب الإلهيّة وأفعالها الخلاصيّة، في صفات شعب الله، وأخيراً في لاهوت المزامير الذي يعتمده النشيد.

[1] الآيات المتوازية للنشيد في سفر المزامير الأكثر معروفًا هي: مز ٢٥: ٥ (لو ١: ٤٧)؛ مز ١١٣: ٨ (لو ١: ٤٨)؛ مز ١١١: ٩ (لو ١: ٤٩)؛ مز ١٠٣: ١٧ (لو ١: ٥٠)؛ مز ٨٩: ١١ (لو ١: ٥١)؛ مز ١٠٧: ٩ (لو ١: ٥٣)؛ مز ٩٨: ٣ (لو ١: ٥٤).

في العنوان السابق عالجنا موضوع البنية والنوع الأدبيين، كما وأنّ أكدنا على أهمّيّة ورود الفعل "ابتهج" لتحديد النشيد كمزمورٍ تسبيحيّ. يبقى أن نشير إلى أنّ اللفظ "تعظّمُ" (في اليونانيّة: *megalynei*) يتطابق مع الجذر العبريّ //ج د ل// الذي يُستعمل بتكرارٍ في مزامير التسبيح.[٢] الفعل اليونانيّ "عظَّم" يردُ بشكلٍ نادرٍ في العهد الجديد، ومعناه محدّد بحسب اللغة الدينية اليهوديّة، أي التعظيم والحمد. أنْ يعترف المرء بعظمةِ الله وأن يعلنَها على شكلِ صلاةٍ، هو أيضًا بعدٌ من أبعاد الحقل الدلالي لهذا المصطلح، وهذا هو المستوى الدلالي المهم لنا في نشيد مريم. أي أنّ عظمة الله ليست مثل عظمة الحكّام الذين يتعالَون عن الشعب، ولكنّ عظمتَه تكمنُ في عمله الخلاصيّ وفي استخدام سلطته من أجل مساعدة الشعب واجتذابهم إليه (Bovon, 88). وهذا ما نستنتجه من مضمون النشيد ونتأكد من تأثّره بلاهوت المزامير بحسب الترجمة السبعينيّة.

أمّا بالنسبة للصفات الإلهيّة وأفعالِ العمل الخلاصيّ فهي أيضاً جزءٌ لا يتجزأ من مصطلحات سفر المزامير، حيث يتراءى الله، من جهة، رحيماً ومخلِّصاً وقدوساً. ومن جهةٍ أخرى، الله هو إله الفعل والعمل، ليس له مدينةٌ أو هيكل، يعرفُ الناس الذين يعملُ بينهم ومن أجلهم. المصطلح "الرحمة" (في اليونانيّة: *eleos*) يردُ مرتين في النشيد (آ ٥٠ و٥٤)، وهو إحدى الصفات الإلهيّة الأهمّ في سفر المزامير. الرحمةُ لها مصطلحان في اللغة العبرية: الأول //ح س د//، والثاني //رح م//. ويشدّد هذا المفهوم على إخلاصِ الله لعهده مع البشر وتحقيقه أعمالَه من أجل أن يقود الإنسانَ إلى الخلاص. أمّا بالنسبة إلى أفعال الله، فالجدول الآتي أدناه يجمعها مع تحديد الآية التي يرد فيها كلّ منها ومع تفسير المعنى اللاهوتيّ لكلّ فعل:

[٢] راجع مز ١٨: ٥١؛ ٢٠: ٦؛ ٣٤: ٤؛ ٣٥: ٢٧؛ ٤٠: ١٧؛ ٤١: ١٠؛ ٥٧: ١١؛ ٦٩: ٣١؛ ٧٠: ٥؛ ٩٢: ٦؛ ١٠٤: ١؛ ١٢٦: ٢. ٣؛ ١٣٨: ٢. الأهمّ بين هذه الاستشهادات هي: مز ٢٠: ٦؛ ٣٤: ٤؛ ٣٥: ٢٧ وفي هذا الأخير يرد الفعلان "عظّم" و"ابتهج" معًا.

الفعل	المعنى	الآية
نظر	عناية	48
صنع	خلق/ تدخّل	49 و51
شتّت	رفض	51
أنزل	رفض	52
رفع	خلاص	52
أشبع	خلاص	53
صرّف	رفض	53
عضد	خلاص	54
كلّم	تدخّل	54

يجدر الذكر أن لهذه الأفعال مفعول به واحد وهو دوماً شعبُ الله، حتّى للأفعال التي نتيجتها سلبية كالفعلين "أنزل" و"صرّف." لذلك نعتبر أنّ "المستكبرينَ بفكر قلوبهم" (آ ٥١)، هم جزءٌ من الشعب الذي لم يقبلْ تعليم الربّ. كما وأنّ "الذين يتّقونه" (آ ٥٠)، هم الجماعة التي تشمل كلّ الشعب المؤمن أو المتّقي الربّ. الأفعال "نظر، صنع، رفع، أشبع وعضد" تشهدُ وتصف الأعمال البنّاءة والفدائيّة التي أتمّها الربّ لشعبه، بينما الأفعالُ "شتّت، أنزل وصرف" تصف رفضَ الله للذين لا يبالون بالعهد ويستعملونه بطريقةٍ غير لائقة. فيما يخصّ زمن الأفعال، هناك نظرياتٌ عدّة حول استعمال الماضي البسيط في هذا النشيد، فمن المفسّرين مَن يقول أنّه يدلّ على سردٍ روائي أو على عملٍ مستمر لا يزال قائماً، كما عند بلامر (Plummer, 33)، ولاغرانج (Lagrange, 48) وغونكل (Gunkel, 53). كذلك دوبونت (Dupont, 331-35) الذي يؤكد أنَّ لأفعال التعظيمة معنى الاستمرار (ingressive)، أي أنّ الفعل حصلَ مرةً واحدة في التاريخ لكنَّ نتيجَته ومفعولَه لا يزالان قائمين. النموذج الأوضح لهذا الاستعمال هو المزمور ٩٣: ١ حيث نقرأ "الربُّ قد ملك"، أي أنّه تتوَّج ملكاً مرّةً واحدةً لكنه لا يزال ملكاً إلى اليوم. أمّا المفسّر بوفون Bovon، فيرى في استعمال الزمن الماضي المعنى النبويّ أو أنّه يدلّ على المستقبل. يستندُ بهذا على أنّ مريم تتكلّم على كلّ ما فعله المخلصُ قبل أن تحصلَ الولادة (هنا يكمن الفرق الكبير مع

نشيد حنة التي ترنم نشيدها بعد ولادةِ ابنها صموئيل)، وبالتالي قبلَ أن يتمِّم المسيحُ عمله الخلاصيّ. هكذا يأخذ النصّ بعدًا إعلانيًّا ونبويًّا يميزه عن نظيرته في المزامير.

أمّا صفاتُ شعبِ الله فتتمحور حولَ التواضع والفقر. مريم والشعب كلاهما متواضعان (في اليونانيّة: *tapeinos*؛ آ ٤٨، ٥٢). علاوة على ذلك، الشعب جائع في الآية ٥٣ (في اليونانيّة: *peinôntas*)، وهو أيضاً عبدٌ لله (في اليونانيّة: *pais*، آ ٥٤). المصطلح "متواضع" له علاقة بكلمة "مظلوم"، ويختاره لوقا لأنّه، في الترجمة السبعينيّة، يجمعُ معنى عدةَ مصطلحاتٍ عبريّة: //ع ا ن ي//، //د ك ك//، //ر و ش// و//د ا ل//. نجد روحيّة هذه الكلمة في الآياتِ التي تتكلّمُ على الفقراءِ الذين يخلّصهم الله (مز ١٢: ٦، ١٤: ٦، ٧٢: ٤، ١٢-١٤) وفي الآيات التي يقدّم فيها المؤمنُ نفسَه أمام الله كإنسانٍ مظلومٍ ومحتاج (مز ٤٠: ١٨، ٧٠: ٦، ٨٦: ١، ١٠٩: ٢٢). إن لم يعترف المؤمن أنّه مريض فلا حاجةَ له لأن يذهبَ إلى الطبيب، لذلك يعترفُ أنه يفتقر إلى الله، كما يقول يسوع "لا يحتاج الأصحاء إلى طبيب بل المرضى" (مر ٢: ١٧).

٤. الخاتمة

تمثّل مريم العذراء في هذه التعظيمة الشعب المؤمن المثاليّ الذي يرى في أحداث التاريخ أفعال الله المحسنة إلى البشر ويمجّدها تعبيرًا عن الثقة المطلقة بالله وشهادةً للمستمعين والأجيال القادمة. في هذه الدراسة أشرنا إلى نقاط التلاقي بين نشيد مريم والمزامير لكي نؤكد أنّه ينتمي إلى التقليد الكتابيّ القديم شكلاً ومضمونًا. من ثمة نستطيع أن نقول أنّه يبشّر بإيفاء الوعود الإلهيّة في حياة وموت وقيامة الربّ يسوع.

تستند طقوس العبادة المسيحيّة إلى هذا النشيد يوميًّا وهذا لكي يتذكر المؤمن ما فعله الربّ بشعبه منذ القديم وتاليًا يتأكد كلَّ يوم أن الله لا يترك المؤمن المحتاج والمتواضع دون أن يُريه الفرح والخلاص.

٥. المراجع

Bible Works. *Bible Works***,** Ver. 7, Bible Works for Windows, Hermeneutika Computer Bible Research Software, 2006, IBM PC Compatible for Windows, CD.

Bovon, F. *L'Évangile selon Saint Luc (1,1-9,50)*, Labor et Fides: Genève, 1991, 88-95.

Brown, R.E. *The Birth of the Messiah*, Garden City: New York, 1977.

Dupont, J. Le Magnificat comme discurs sur Dieu, in: *Nouvelle Revue Théologique* 102 (1980), 321-343.

Fitzmyer, J.A. *El Evangelio según Lucas II. Traducción y comentario Capítulos 1 – 8,21***.** Madrid: Ediciones Cristiandad, 1987.

Gunkel, H. Die Lieder in der Kindheitsgeschichte Jesu bei Lukas. In: *Festgabe von Fachkollegen und Freunden… dargebracht* (Festschrift for A. von Harnack), Tübingen, 1921, 43-60.

Lagrange, M.J. *Evanglie selon saint Luc* (EtB), Paris: Librairie Lecoffre, ^{7}1948.

Plummer, A. *A Critical and Exegetical Commentary on the Gospel according to St. Luke* (ICC), New York, 1896.

Schökel, L.A. and C. Carniti. *Salmos I. Salmos 1-72. Traducción, introducciones y comentario*. Verbo Divino: Navarra, 1994.